جَمْعُ السِّيَرِ الذاتِيَّة: علاقة المراقِبِ بالموضوع

مَاري كلود سَعيد

نشأت النزعة إلى جمع السير والسير الذاتية كأداة للبحث في الولايات المتحدة الأميركية إبان الخمسينات في سياق دراسة جماعات المهاجرين بهدف توضيح تطورها التدريجي وسبل تأقلمها وانخراطها في البنيان الاجتماعي الأميركي المتعدد.

تتميز المنهجية البيوغرافية عن الاستمارة بخصوصيات في طرائق الاستقصاء تتحكم بأسلوب العمل وتحدد نتاجه، من أهمها التسليم المبدئي بالقيم التعبيرية لحياة الأفراد، وقيام علامة مباشرة بين الباحث وراوٍ انتقاه من بين رواة عدة محتملين على أساس قبوله بالإدلاء بشهادة تُبَلور مسألية الباحث وتضفي عليها الشرعية الميدانية.

من أسس متطلبات هذا الأسلوب في الاستقصاء استنفار قدرات الراوي والباحث على التواصل والكلام بغية إنتاج خطاب علمي ينقل التجربة الفردية إلى مستواها الإنساني. أي بكلام آخر تحويل الذاتي إلى موضوعي، الخاص إلى عام، المحكي إلى مكتوب والمكتوب إلى مقالة.

نحن إذاً في صدد مسألية وتجربة ميدانية: باحث وراوٍ ونصّان. الراوي هو موضوع مراقبة عبر علاقة طويلة في زمنها ومحددة في أهدافها تنشأ من خلال الكلام والتواصل، أما النصان: فأحدهما شفهي من صنع الراوي والآخر مكتوب يؤلف المقالة العلمية.

ما أود أن أتطرق إليه هو علاقة الباحث بالراوي التي لا ندركها من خلال قراءاتنا للكتب والنصوص المنهجية فحسب لأنها لا تكتمل إلاّ بشروط البحث والقدرة على القيام به. كان عبئاً عليّ الحديث عن الباحث، وبالتحديد عن تجربتي الشخصية في أثناء عملية جمع لسير ذاتية قمت بها مدّة سنة ونصف السنة لنيل شهادة الماجستير في الأنتروبولوجيا. كنت أشعر بضرورات تحولي إلى مراقب فعلي من دون أن أدرك معنى هذا التحول. تعلمنا الكتب أن الباحث يسيطر على شروط

العمل ويعرف قـوانينه، وأنه هو نفسه ليس موضـوعاً للبحث، كونه مـراقباً موضوعـياً. وعليه بدأت أدرك أن اقتباس التقنيات وإنتاج الخطاب العلمي والسيطرة على الموضوع غير ممكنة من دون الدخول في حـال تواصل مع المراقَب والقـبول بشروط كـلامه. حال التـواصل هذه تعلم المراقبـة عبر عمليـة تبادل ثنائية تستنفـر الطاقات الحسيـة والعقلية وحتى الجسـدية للباحث وتسكنه طوال بحثه لتحوله إلى مراقِب.

ولأن هذه العملية ثنائية فهي لا تقوم أيضاً إلاَّ بفـضل الراوي الذي يحول مستمعه إلى باحث أي إلى مراقب. وكان حظي كبيـراً بانتقاء رواة علموني من خلال قبولهم غيـر المشروط بالعمل معي درساً لا يُنسى في المنهجية. وإنني أعترف لهم بفضل كبير.

بدأ تجميع السير الذاتية عام ١٩٩١ وكان الموضـوع عودة المهاجرين اللبنانيين الشيعة من أفريقـيا إلى وطنهم الأم ومـسألية انخراطهم في المـجتمع اللـبناني. عرضت المـوضوع على الأستاذ سليم عبو في الجامعة اليسوعية في بيروت وهو السباق في هذا المجال، إذ إنه قام على مدى سنين عـديدة بكتابة سير لبنانـيين من أجيال مـختلفة هاجروا إلى الأرجنتـين. وقد وضـع الأب عبو سيرة تأقلمـهم في المجتمع المغترب في كتابه الأكثـر انتشاراً من بين مؤلفاته: لبنان **المستأصل أو مهاجرو أميركا الأخرى**.

تحمس عـبو للموضوع وأول مـا قاله إن موقف الباحث ومـوقعه وانتقاء مـسألية العـلمية الدقيـقة وقدرتـه على امتلاك الهـدف وتصويبـه، واستدراجـه مخاطبـه إلى الكلام هي من أهم شروط هذه العملية. وأصرَّ على أن موقعي كـباحث يتفوق على موقع الشاهد لأنني على علم بما أبحث عنه، فعليّ ألاَّ أهاب وضعية التواصل والكلام. ولم يقل المزيد وتركني أعمل وحدي طوال سنة ونصف السنة.

انتقيت عـائلة اعتبرتها نمـوذجاً معبّراً عن سؤالي بعـدما قمت بأبحاث تمهـيدية قادتني إلى خياري النهـائي. تتألف العائلة (عائلتي كـما أسميها) من ذكـرين وأنثيين من جيلين مـختلفين، يعملون بمهن متباينة. أب وأم وولدان من تجـارب عدة. وكان هدفي دراسة عملية الانخراط في المجتمعين السنغالي واللبناني عند الذهاب وعند العودة وشـروطها عبر سيرهم الذاتية المعبرة عن الحياة اليومية التفصيلية لكل منهم.

لا تنشـأ العلاقـة بين الباحث وراويـه حول المـوضوع إلاَّ في شـروط وضعـية التـواصل والكلام، هذا ما يقال في الكتب ويعلمه الأساتذة. ولـكننا حين ننوجد أمام الراوي نتوخى منه أن يكلمنا على ما لا يريد الإفصـاح عنه، ونرجو في قرارة أنفسنا المرتجفة مـن التلهف ألاَّ يستعمل الكلام المألوف، والكلشيهات الرتيبة التي نعرفهـا مسبقاً ولا نريد في الوقت نفسه التعدي على حـيـاته الخاصـة ونخـشى أن نبـدو له بصـورة المـحقق الـعسكري أو الـصحـافي السـريع الاستنتاجات أو التلميذ الشاطر العديم التجربة فكيف نعمل؟ حين نطلب منه وقته، وننشىء معه علاقة ثنائية تستدعي القول والرواية فأي وضعية تقوم؟

لا يكون أي عمل في هذا الصدد إلاَّ إذا بادل الباحث الراوي ما يطـلبه منه. العلاقة الثنائية بين الباحث والـراوي تتطلب من المراقب مـا تتطلبه من المـراقَب: الوقت، التنبه إلى الكـلام، تحويل المسألية إلـى معنى، النأي عن الأفكار المسبقة، اكـتشاف متعة لقاء الآخـر، تحوّل المراقب إلى شاهد.

الوقت، الزمن، زمن اللقاء، زمن الكلام

المطلوب إعطاء الوقت للأشياء كي تتبلور، وخلق أزمنة داخل هذا الوقت: زمن للّقاء وآخر للتعارف، زمن للفسحة والخروج عن الموضوع وآخر للكلام وأخيراً زمن الكلام حول الكلام. يستلزم البحث العلمي وقتاً يحسب له الحساب ويحوّل إيقاع الحياة اليومية لتدور في فلكه. ولكن المفارقة هنا تكمن في أن الوقت يتحول إلى موعد، الاثنان على موعد ثابت، أي على لقاء حول عملية تواصل. في الموعد، وداخل الوقت المحدد له، توجد الأزمنة التي سبق ذكرها ولكنها لا تتوالى ولا تتتابع: هي متداخلة. فكل مرة يوجد زمن التعارف والفسحة وزمن الكلام وزمن الكلام على الكلام، بيد أن إيقاع الكلام التكراري أحياناً والمتقطع غالباً، هو ما يسمح بتقديم العمل. والتقدم يتجلى بوضوح الصورة عند الراوي الذي يقوده الباحث إلى استدراك معنى روايته. يتم اللقاء حين يكتشف الراوي معنى لروايته. حينها يتحول الباحث من سائل إلى مجيب ومن مدرك إلى عالم.

لقاء الباحث والراوي يتم بعملية انتقال الكلام ومعانيه من الواحد إلى الآخر.

كيف يحول الباحث الوقت إلى لقاء واللقاء إلى أزمنة؟ كيف يقود مجيبه إلى استدراك معاني سيرته الذاتية؟

الباحث الأنتروبولوجي (أو غيره) هو إنسان عنده ملء الوقت، وهذا لا يعني أنه لا يعمل إلاَّ ببحثه. فهو عادة متوسط الحال، معلم أو أستاذ جامعة، أو صحافي، وغالباً متزوج وعنده أولاد يسعى وراء لقمة العيش كسائر من هم في حاله من عباد الله.

أن يكون لديه ملء الوقت يعني أنه ممتلىء بوقت موعده مع راويه. حتى إن هذا الامتلاء لا يغفل عن أهل بيته الذين ينفرون من سماعه يتكلم على موضوع واحد هو موضوع بحثه!

يراقب أهل بيته بطرف أعينهم حركاته الموتورة أحياناً قبل الذهاب إلى الموعد. يسخرون من تحضيره الأسئلة بصوت عالٍ ومن إملائها عليهم بغية تجربة وقعها على الراوي! وأهل البيت يعرفون أنه حان وقت الموعد، وهذا قبل ساعة أو ساعتين من حصوله. يرون «الماما» التي تتحول فجأة إلى إنسان آخر، تجمع أوراقها بأيد مرتجفة، وتتأكد من سلامة بطاريات آلة التسجيل (وهي التي تنسى عادة بطارية السيارة فارغة) وتأخذ معها أشرطة تسجيل لا تحصى (بينما واحد يكفي) تضعها في حقيبة يدها على عجلة (وكأن الوقت داهمها). تصفف شعرها وتدخن آخر سيجارة يسرقونها من فمها حفاظاً على صحتها. فيعلو صراخها وتعلو جلبتهم، وتكثر مطالبهم. يريدون طبقهم المفضل قبل أن تخرج. ويجب عليها أن تشتري لهم الآن دفتراً عوضاً من الذي نسوه في المدرسة. إنهم بحاجة ماسة إلى الذهاب الآن، الآن، عند صديقتهم في الجهة المعاكسة لوجهة سيرها لسؤالها عن شيء مهم لأن التليفون معطل!

حتى إن والدهم يهزأ منها ويقول لمن يحب سماعه: «أمهم كرّهتهم بالعلم...».

هذا هو الوقت الذي يحول الكلام إلى تواصل والتواصل إلى علم... هو وقت وصولنا إلى الموعد فيشعر الآخر أننا كلنا سمع، وكلنا عنده ومعه، وبأن هذا الوقت المخصص للبحث هو وقت محدد له بالذات وهو أهم عمل نقوم به في هذه الفترة من حياتنا، وهو كذلك. إذ نشعر لحظة مثولنا أمام الراوي أننا وصلنا إلى الموضوع وبأن الباقي كل الباقي قد غيّب، فلا نعود

نتحسس بآلام رقبتنا المزمنة... حينها نسمح للآخر بأن يقود الأزمنة كما يشاء ونحترم وتيرته: وتيرة سرد الموضوعات، وتيرة ذاكرته، حتى تعبه... فنكلمه على أشياء تريحه وهكذا نقوده تدريجاً إلى القبول الذي من دونه لا يصحّ الكلام.

قبول الراوي وقبول المراقِب

عملية اللقاء جوهرها القبول: أن يقبل الراوي رواية السيرة وأن يقبل الباحث معنى الرواية. لذا فإن الأبحاث الأكثر موضوعية وتعبيراً هي التي تولد من رواية راوٍ على استعداد كامل للدخول في العملية الثنائية. والاستعداد لا يتبلور ولا يتطور ولا يتجرّد بفضل الباحث وقدراته فحسب إنما هو شرط من شروط التواصل. فالراوي، خلال روايته سيرة حياته على آخر، يضفي عليها أبعاداً كان يجهلها هو بذاته، وقبوله هذا يولّد لديه شغفاً بالتفتيش عن معانيه، أما التفتيش فلا يقوم إلاّ بالكلام. فللكلام والاستماع إليه والقبول بدلالاته ومعانيه وقع أساسي على الباحث في تحويله إلى مراقِب.

الكلام ودلالات التعبير

يعلم الكلام الاستماع والنظر، فالسؤال: فالمعنى فالكتابة. في وضعية الاتصال بالآخر يكون الكلام سيد المواقف والأداة الوحيدة للتعبير. كلام الباحث الذي يستدرج كلام الراوي: كيف نطرح الأسئلة؟ أي كلام نستخدم في طرحها؟ وكلام الراوي الذي يستدرج قدراتنا على الاستيعاب. كيف نفهم ما يقال؟ ماذا يعني بكلامه هذا؟ نتكل على أداة التسجيل وذاكرتنا وحواسنا المستنفرة. من السمع إلى النظر إلى حواسنا الداخلية إلى مشاعرنا المعلقة على شفاه مخاطبنا، فلا ترف لنا عين ولا يشرد لنا ذهن ولا نفكر في شيء إلاّ بما يقال! ولكن كيف؟ ونحن خلال كلامه وبينما هو يحكي ننتظر منه أن يقول لنا ما نريد سماعه، نتوخى أن يجيب عن أسئلتنا التي لم نفصح عنها بعد، أن يكشف النقاب عن الخفايا... نريد الخفايا... نريد كيف ومتى ولماذا ونريدها الآن. فلا نعود نسمع ونكون في حال الانتظار، والانتظار ليس السمع، أي أنه ليس المراقَبة بل هو ضدها.

في أول مرة كنت على موعد مع أحد مخاطبي طلبت من السيدة «فرانس مترال» مرافقتي. و«فرانس» أستاذة أنتروبولوجيا في جامعة ليون الفرنسية وكانت في أثنائها في بيروت. وافقت بسرور لأن الموضوع يهمها كما ادعت. كنت على يقين بأنني حفظت درس المراقبة والاستماع: انظروا إلى حركات الجسد، فسروا معاني الكلام، فتشوا عن الدلالات، سجلوا كل حركة: قحة، استدارة، سكوت. راقبوا الأرجل، الأيدي. سجلوا، دوّنوا، انتبهوا... تنبهوا...

جلست «فرانس» بوضعية هادئة فاعتقدت أنها تريد بذلك الانسحاب من العمل وترك الميدان لي.

وجلست أنا أمام محاوري مستنفرة حضوري كله... سألته السؤال الأول وبدأ بالسرد. ورحت أقاطعه، وأعيده إلى ما هو الموضوع الأساسي (بحسب تقديري) وأطلب منه تكرار بعض الألفاظ لاعتقادي أنها ذات دلالات أساسية. وبدأت أصحح تواريخ ذاكرته المبعثرة

وأعقلن سياقها وأعيد طرح السؤال الذي كان هو قد استوعبه. من الوهلة الأولى... لم تتدخل «فرانس» بالحديث وتابعت تنظر إلينا بهدوء. رويداً رويداً أصبح الرجل يوجه الكلام إليها، ويشير إليّ بعدم مقاطعته قبل أن أهم بالفعل، إذ إنه كان يشعر بقدوم المقاطعة قبل ورودها بسبب ملامحي القابضة وزفراتي التي تعلو وقلمي الذي لا يكف عن التسجيل...

وبعدما انفصل عن حضوري الطاغي والمؤثّر أخذ يحكي الكلام الذي طالما انتظرته، وينطق بما كنت أبحث عنه، لأن السؤال كان واضحاً لديه منذ بداية الجلسة وهو قابل مسبقاً بشروط الحديث. ولكنه كان بحاجة إلى استجماع ذاكرته والشرود بها، والتفتيش عن معانيه واكتشاف فحواها. ولم يحصل فعل التواصل إلاّ بعدما أتاحت له «فرانس» فرصة الاستماع إليه. والاستماع إلى آخر هو عكس الانتظار... يتم بتأمين مساحة يمكنه من خلالها أن ينظم خطابه ويضبط وتيرته. يؤمن المستمع المساحة للمتكلم بتوفير جو من الهدوء الإيجابي يشعر مخاطبه بأهمية خطابه. وهذا الجو ليس مصطنعاً إنما هو الشرط الأول للمراقبة، إذ إنه على الرغم من حضور أهدافنا العلمية يبقى التسليم بأهمية المراقب وقيمته العلمية أقوى وأجدى من أفكارنا المسبقة حول شرعية المسألية التي لا تكتمل إلاّ بالتحقيق الميداني. في المنهجية البيوغرافية يتكون الميدان من ذاكرة الراوي وتجربته الشخصية.

يقول مثل أفريقي: «عندما تذهب الذاكرة لتجمع العيدان اليابسة تعود بالحزمة التي تعجبها» (عن أساطير أمادو كومبا، للكاتب السنغالي بيغارو ديوب) Présence africane, Paris. ."Quand la mémoire va ramasser du bois mort, elle rapporte le fagot qui lui plaït".
يرتكز الخطاب السيري على ذاكرة الراوي. ومفهوم الذاكرة يتعدى خصوصيات السير والخطاب إلى النتاج البشري كافة: المنازل ذاكرة، الشوارع ذاكرة، معالم الحضارة كلها ذاكرة. تقدم المعالم الاجتماعية نفسها بصورة ما هي نتاج تطور في الزمن بلغ في فترة زمنية محددة شكلاً وتنظيماً ظاهرين يتقدم المراقب لدراستها. هذا التنظيم هو حال الأشياء، أي كيفيتها وطالما مزجنا باستنتاجات سريعة بين الحال والواقع. في الخطاب السّيري يكون الكلام معبراً عن حال: حال الراوي في وضعية استجماع الذاكرة، في زمن ما من حياته الشخصية يحدده السن، الوضع الاجتماعي، شروط المعيشة، الوضع النفسي، كونه امرأة أم رجلاً، المهنة وقدراته على استخلاص التجارب والإفصاح عنها.

تدور عملية استجماع الذاكرة حول مسألية تكوّن موضوع الكلام وخلفيته. وهذه المسألية هي السبب المباشر في استقصاء سيرة راوٍ دون آخر. للراوي تجربة، تكوِّن محور حياته تتلاقى مع مسألية الباحث، يمتد وقعها على حياته الشخصية والاجتماعية وتكون شهادة معبرة عن واقع اجتماعي ما.

إن مهمة المراقب كشف النقاب عن الواقع من خلال الحال التي تعرض أمامه وتقدم نفسها عبر الكلام: الألفاظ، التعابير، المفردات، طريقة ترتيب الحديث وتركيبه، استعمال الأفعال، التكرار، وكذلك السكوت والحركة هي الأشكال التي يعرض بها الكلام الموضوع المتداول. الانتقال من الحال إلى الواقع من المحكي إلى المعنى مهمةٌ المراقبُ يحددها من خلال موضوعه العلمي. ثمة تقنيات في نقل النص السيري الشفهي إلى نَص مكتوب تعود في مجملها إلى قواعد اللغة وأساليب الكتابة. ولكن الأهم، وقبل عملية الكتابة. يكمن في قدرة المحكي على استيعاب الموضوع (قدرات الراوي) وفي استخلاص الموضوع من المحكي

(قدرات الباحث). للباحث هدف واضح هو استعمال السيرة في عملية بحثه بغية استنباط الواقع من الحال الميدانية.

كيف يحول الباحث موضوعه إلى معنى بفضل راويه؟

حضور الموضوع العلمي

الموضوع العلمي حاضر في سؤال الباحث الذي يطلب من الراوي الإجابة عنه. لا يطرح الموضوع إلاَّ لكونه موجوداً، أي قائماً في حال اجتماعية ما. أما الهدف من طرحه فهو التوصل إلى الولوج به إلى المستوى النظري. في البحث السيري تولد النظرية (الوجه العام الموضوعي للسؤال) عبر العلاقة بين السؤال والإجابة، بين الحال والواقع، بين المراقِب والمراقَب.

ينتقل السؤال من الشفهي الذاتي الحسي إلى المكتوب النظري الموضوعي في أدائه الأخير، عبر عملية إيحاء للأدوار بين السائل والمجيب. نتاج الخطاب السيري في البحث الأنتروبولوجي ليس نتاجاً أدبياً، أي أنه لا يعتمد على الوهم والتخيّل (Fiction) بيد أن شروط جمعه تتطلب بديهة روائية لإعادة ترتيب معاني الكلام وتبويبها من خلال السماح للراوي بتأدية دوره، أي كما سبق وكررنا عبر قيادته تدريجاً إلى استنباط معاني أفعاله وتجاربه.

هو يحكي وأنا أكتب الكتابة نتيجة حضور الموضوع العلمي.

والموضوع الأنتروبولوجي من خصوصياته أنه يفتش عن معانيه في مستويات الحياة البشرية كافة. لذا فإن من شروط الباحث إلمامه بالموضوع مسبقاً، أي أن يعلم جميع المستويات التي يشملها الموضوع الإنساني الذي هو في صدده. لكن إلمامه بها يجعله رهينة مخاطبه الذي وحده يمكنه أن يضفي شرعية علمية على السؤال المطروح. هل يتحول الراوي بسبب الموضوع إلى أداة بحث؟ هل تحويله إلى موضوع بحث كافٍ لقيام المنهجية العلمية؟ أنا أسأل وهو يجيب، هو يحكي وأنا أكتب. من هو السائل وما علاقته بالموضوع؟ من هو المجيب وما علاقته بالموضوع؟

كيف تنتقل علاقة الاثنين بالموضوع الواحد من أحدهما إلى الآخر كي تتم عملية الإدراك، أي استخلاص الواقع من الحال التي من دونها لا يمكن الكتابة؟

النأي عن الأفكار المسبقة وضرورة التبادل

أن يكون للباحث هدف علمي وإلمام مسبق ببحثه لا يعني أن يسمح لنفسه بأن تكون لديه أفكار مسبقة حول الموضوع.

هذه الملاحظة ليست حقيقة معروفة وبيّنة فحسب، بل إنها ظاهرة طالما أفسدت قيمة النصوص العلمية وشوهت الوقائع، ولا بد من التوقف عندها. تعلمتها أيضاً من تجربتي وتلقنت فيها درساً بعدما كنت على وشك فقدان مصداقية بحثي كله.

في بدايات العمل كنت أمزج بين الراوي والموضوع، بين الموضوع وأفكاري المسبقة، بين ما نويت أن أكتشفه وما اكتشفته فعلاً من دون أن أراه.

قلت في مقدمة هذا العرض إن خصوصية الخطاب السّيري تكمن في أن المخاطِب على علاقة بالمخاطَب انتقاه لبعده التمثيلي للغرض الذي هو في صدد البحث عنه. وأشرت أيضاً إلى أن الباحث يكاد يحول الراوي إلى أداة بحث من أجل شرعية الموضوع الذي من دونه لا مبرر للقيام بالعملية كلها. للسائل إذاً وجهة نظر طاغية على مجرى البحث كله، لكنه متى أساء استعمالها فسد العمل بكامله.

قدمت إلى اللجنة الفاحصة نص السّير البالغ مئة وسبعاً وعشرين صفحة تروي تفاصيل الحياة اليومية للمهاجرين الشيعة من أصل لبناني في السنغال، وتروي أيضاً تفاصيل المشاكل التي تعرضوا لها في أثناء عودتهم إلى لبنان. نصوص مبوبة بحسب المبحث، أعدت إليها سياقها التاريخي ونظمت كلامها. هنأتني اللجنة على مضمون كتابة النصوص السيرية وطريقَتها، وأشادت بجدِّية العمل. لكنها استوقفتني عند التحليل، والتحليل هو نتاج العمل النهائي، أي الحصيلة التي تفرق بين باحث وآخر في قراءته العلمية للأوضاع التي يدرسها وفي قدراته على استخلاص الواقع.

جاء تحليلي يهدف إلى إظهار القيمة العلمية لعملي أنا وليس فقط قدراتي على كتابة السير. جاء تحليلي في نص يكاد يلامس معاني السير ويبتعد منها بالالتفاف حولها وتقويلها ما لم يقله الراوي في محاولة واضحة لعدم الخروج عن موضوعي (المفترض أنه علمي) وإبرازه بشتى الوسائل «النظرية». لم أتمكن، وبسبب أفكاري المسبقة حول العلم والموضوعية، من استغلال النصوص السيرية استغلالاً دقيقاً، كما لم أتمكن أن أظهر من خلالها حقائق ووقائع تكاد تكون أهم مما كنت أبحث عنه.

من هو السائل؟ السائل هو الذي يؤمن بالقيمة الإنسانية التمثيلية لأجوبة المجيب. ومن هو المجيب؟ المجيب هو الذي يتمكن بفضل السائل وقدراته على إدارة الحديث من اكتشاف القيمة الإنسانية لمعانيه. فقط عملية التبادل هذه تضفي على التحليل صفته العلمية. أما المعنى الحقيقي فلا يكون إلاّ بالعودة بعد الجلسة أو الموعد للاستماع إلى الحديث المسجل على أشرطة الآلة، نستوقفه، نعيده، نتنبّه إلى ألفاظه وترتيبه ووتيرته ونطرح كل يوم عليه أسئلة جديدة من وحي النص الشفهي الذي بين أيدينا ومن صلبه. نختفي نحن وأسئلتنا «العلمية» وأهدافنا المسبقة ونتحول معها إلى أداة اكتشاف للواقع.

لقنني الراوي درساً في ضرورة الخضوع لاكتشاف الموضوع والتسليم بحقيقته.

حين كنت أراقبه يفتش عن معاني حياته ويوصلها إلى كلامها الدقيق بفضل الأسئلة التي بدأ هو أيضاً يطرحها على نفسه، تلمست في تصرفه هذا متعة اعتقدت (لعدم تواضعي) أنها من فعلي ومن قدراتي على استئصال الكلام. وفرحت بكوني قادرة على الوفاء بغرض التواصل. ونال نص السير كما ذكرت إعجاب اللجنة الفاحصة، لأنني كنت قد حرصت على الأمانة لنص الراوي. واعتقدت أن الأمانة ميزة خلقية سامية ولم أربط بين قبول الراوي الإدلاء بشهادته وبين متعته الظاهرة في إعطائه المعنى للمعاني التي هي «حاجة» لدى كل من يدخل في الكلام. وجاءت مقالتي التحليلية دون مستوى السّير بحد ذاتها، لاعتقادي أن الكلام العلمي هو كلام مجرد يتخطى الموضوع الميداني، وأن النظرية أسمى من تطبيقاتها الفعلية، لأنها القالب النهائي الذي يكوِّن إطار الظاهر.

متعة الاكتشاف، دقة المراقبة، الكلام البطيء

حين أفكر في أي بحث أخاف مسبقاً الوقتَ الذي سيأخذه مني، ومن استئثاره بحياتي اليومية، وتمدده فيّ وتسلطه عليّ... ومن تحليلاتي الخاطئة. البحث العلمي عملية مملة غير مضمونة ومحبطة، تشعرنا بالابتعاد من الآخرين وهي من غير جدوى لا تأتي علينا بالمال ولا بالسلطة... نتوخى منها أن يعترف بنا الآخرون ولن يفعلوا! والباحث كأنه حيوان منقرض يكاد يظهر متخلفاً عن زمنه أو في أحسن الأحوال (وهذا ما لا يجرؤ حتى هو على اعتقاده) سابقاً له. وعلى الرغم من ذلك لا يغفل عن طرح الأسئلة. فمن أين يأتي بهذا الإصرار؟

إصرار الباحث يأتي من كونه فرداً لديه اهتمامات مباشرة وحياة ذاتية يفتش هو أيضاً عن معانيها مثلما يفتش راويه عن معاني روايته. يحول السؤال البحث إلى موضوع والباحث إلى مراقِب والمراقَب إلى راوٍ. والراوي هو القابل بمعاني الكلام وبإرادته في الإفصاح عنها عبر اكتشافه لها من خلال وجوده فيها. لا يكون الاكتشاف إلاَّ بمتعة الاسترسال لحقيقة الرواية. ولا يكون إلاَّ بالتسليم بأن الباحث الراوي ليس إلاَّ أداة وبأن الرواية وهي الأهم، تكمن أهميتها في متعة اكتشافها.

المتعة شرط من شروط البحث العلمي ولكنها الأصعب. إما أن توجد أو لا.

ما دمنا نحمّل المتعة صفات متناقضة ذات دلالات خلقية تراوح بين المجانية والسموّ والخطيئة والإثم. وما دمنا نطلق عليها أحكاماً متباعدة: فمنهم من يقول إنها عكس العقلانية ومنهم من يتوغل في الدفاع عن شرعيتها.

متعة البحث لا علاقة لها بالصح أو بالخطأ: إنها قبول الباحث بذاتيته يتعلمها من ذاتية المراقَب، أي من موضوعية الموضوع. فمتى قبل الباحث بذاتية اهتماماته قبل بموضوعية البحث. فلا خوف أن تكون متعة الاكتشاف لها علاقة بنا. الخوف كل الخوف ألاَّ يكون لنا البعد الكافي والمطلوب للقيام بعملية المراقبة فنمتلىء بأنفسنا ونصدق قدراتنا العلمية على هشاشتها. حينها لا نستطيع الذهاب لملاقاة الآخر الذي متى التقيناه تلاقى وسؤالنا وكشف لنا النقاب عن الحقيقة. والمتعة شرط لاستمرارية الباحث في عمله وزاده اليومي، إذ ما عداها لا تعويض للباحثين في مجتمعنا. يخبرني الباحثون الأوروبيون حين ألتقي بهم في بيروت أن دولهم تطلب منهم دراسات وتأخذها في الحسبان قبل إقدامها على مشاريع إنمائية أو سياسية أو ثقافية. مرة قرأت لـ«مادلين غرافيش» في كتابها الشهير **منهجيات البحث في العلوم الاجتماعية**، أن الحكومة اليابانية، بعد الحرب العالمية الثانية، طلبت من باحثيها دراسة سبل الانتقال إلى نظام سياسي جديد يجاري متطلبات ما بعد الحرب الكونية. وقد نصح هؤلاء بالمحافظة على مكانة الامبراطور وشخصيته المعنوية، لأن خلعه سيدخل البلاد في فوضى تفقدها توازنها. وحدها في لبنان مكاتب الدراسات الاقتصادية الخاصة أو مكاتب الإعلان تقوم بأبحاث محدودة لزبائن من رجال الأعمال والمستثمرين.

ومن وقت إلى آخر يتحلق المثقفون اللبنانيون حول طاولات حوار في مكاتب الصحف أو على شاشات التلفزة ينتجون خطاباً سريعاً لا يقرأه إلاَّ المهتمون ولا يسمعه إلاَّ من فوّت بداية الفيلم العربي (الأكثر تسلية وترفيهاً) على قناة أخرى.

وبعد، هوذا عصرنا يشهد وابلاً من الكلام ينهال علينا من وسائل الإعلام كافة. حتى إننا بتنا لا نميز بين خطيب وآخر لكثرة الكلام وسرعة وتيرته.

أخبرني ذات مرَّة أستاذي في جامعة ليون الفرنسية أن والدته لا تتوقف عن مطالبته بالظهور على شاشات التلفزة لتؤكد لصديقاتها اللاتي بتنا لا يصدقنها بأن ابنها عالم اجتماعي مرموق وله منشورات وكتابات!

الآني هو الحدث الطاغي والصورة العابرة هي التعبير الأكثر انتشاراً عن التطورات السريعة للعصر. لكن الإعلان عن الحدث ليس دراسته. علّمنا تاريخ المجتمعات التي ابتدعت الصورة أنها، قبل ابتداعها، ومن أجل ذلك، استعملت الكلام البطيء للحديث عن نفسها. ويعيدنا بطء الكلام إلى الرواية والراوي إلى الموضوع والسؤال عنه.

وحده الكلام البطيء يحيي الأزمنة، والأحوال، والخصوصيات، ويعبر عن وقعها على جميع مستويات الحياة الإنسانية التي لا يمكن أن تكون أحادية الجانب، على الرغم من طغيان عنصر من الواقع على الآخرين. الكلام البطيء هو الذي يقارب الموضوع من جوانبه كافة، حتى ولو اكتشفنا أنها ليس كما كنا نعتقد. الكلام البطيء هو الكلام عن مستويات، وطبقات، ودرجات وفوارق دقيقة. هو ما يخفيه المراقب وما علينا ملاقاته لاكتشافه.

وأخيراً، وحده الكلام البطيء يسمح لنا بسرعة البديهة والتقدم بالبحث واختصار الوقت وكتابة المقالة العلمية. هذا ما يعلمه راوي السيرة لباحثه حين يمثُل الباحث أمامه ويراقبه في عملية اكتشاف معاني حياته التي يضعها في تصرفه.